

## استثمار الكلمة وإدارك مسؤوليتها



إنّ من أهمّ النّـعَم التي أنعم الله بها على الإنسان، والتي تستوجب منه ثناءً وشكراً، منحه القدرة على التعبير باللسان أو بالكتابة. ويكتفي ليعرف الإنسان أهميّة هذه النّـعمة، أن يتخيّل أثر زوالها عليه وعلى مَن حوله، أو أن يراقب مَن لا قدرة لديهم على النطق أو الكتابة، ويستشعر مدى الصعوبات التي يواجهونها.. فالقدرة على التعبير أو الكلام لها دور أساس في حياة الإنسان، فبها يُعبّر عن مكنونات نفسه، وما يعتمل في داخله من مشاعر وعواطف وأحاسيس، أو شكاوى وهموم وغموم، وبها يُعبر عن أفكاره وتوجّهاته ونظرته إلى القضايا التي تُطرح عليه، وهي وسيلة التواصل مع الآخرين، وبدونها، يصعب الحوار وتبادل الأفكار والآراء. ولكن قيمة هذه النّـعمة وشكراها، يكون بحسن استثمارها والاستفادة منها، بأن تكون أدّاة لبث روح الألفة والمحبة، وزرع الخير في نفوس الآخرين، وتحقيق الإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف مع قضايا الحق والعدل، وكلّ ما فيه خدمة للأفراد والمجتمع.

وإلا، فإنّ هذه النّـعمة قد تتحول إلى نعمة وإلى مشكلة لصاحبتها وللناس، عندما يكون الكلام أدّاة لزرع الفتنة والأحقاد، أو خلق التوترات ونشر الفساد والانحراف، ولتأييد الطالم والفاسد، ولتثبيط العزائم عن قضايا الحق والعدل والحرية، أو الدعوة إلى ترك المعروف و فعل المنكر. وتزداد هذه العواقب مع تطور وسائل الإعلام والتواصل، التي ألغت كلّ الحواجز أمام الكلمات على مستوى الزمان والمكان. ولهذا، لم تعد تأثيرات الكلمة في هذا العصر تقف عند حدود ما يسعى إليه مطلقها، بل تصل إلى موضع لم يكن يتوقّعها، وقد لا يريدها، وينطبق على ذلك قول الإمام عليّ (عليه السلام): «الكلامُ في وَثَاقِكَ ما لم تتكلّمْ به، فإذا تكلّمْتَ به صررتَ في وَثَاقِه». وقد أشارت الأحاديث إلى هذه التداعيات، وقد ورد في ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنسٌ قال: «إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يطّلُعُه ما بلغت، يكتب الله تعالى بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة من سخط الله، ما كان يطّلُعُه ما بلغت، يكتب الله تعالى بها سخطه إلى يوم يلقاه». وقد ورد في الحديث عن الإمام عليّ (عليه السلام): «رُبَّ كلامٍ أنفذُ من صَولٍ». وفي حديث آخر عنه: «رُبَّ كلامٍ أنفذُ من سهام».

ولذلك، عندما سُئل الإمام عليّ (عليه السلام) عن أيّ شيء ممّا خلق أَنْ أَحْسَن؟ قال: «الكلام». فقيل له: أيّ شيء ممّا خلق أَنْ أصبح؟ قال: «الكلام». بالكلام أبيضت الوجوه، وبالكلام أسودت الوجوه». وقد سأله رجل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عمّا يدخله الجنّة، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «كُفِّرْ عَلَيْكَ هَذَا» (يقصد اللسان).. فقال له: يا نبِيًّا، إِنَّا لَمُؤْخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ به؟ فقال له: «وَهُلْ يَكُبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاطِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ الْسَّنَتِهِمْ؟!». وفي الحديث: «بَلَاءُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْلِّسَانِ».

من هنا، كانت إرادة الله سبحانه لعباده تشديد الرقابة على اللسان، وهو بذلك أراد أن يشعر الإنسان بمسؤوليته فيما يطلق من كلمات ويجعله أكثر حذراً، فرقابة الله عزّ وجلّ تشعرنا بالمسؤولية، وتجعل الإنسان أكثر حذراً إن هو تكلّم، فيأخذ بالاعتبار أنّ كلّ كلمة هي محسوبة عليه ومسجلة عليه من ملكيّن موكلين به، وإن سبحانه هو الرقيب عليهم من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم، حيث يقول سبحانه: (إِذْ يَتَّلَقُونَ إِلَيْهِ أَنْعَانُ الْمُبَرَّمِينَ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدُ) (ق/17)، (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتَيْدٌ) (ق/18). ويقول: (وَأَسْرُوا فَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (الملك/13). ويقول عزّ وجلّ: (يَوْمَ تَشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ كَما كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النور/24). ومن يعي هذه الرقابة، والمؤمن يعيها، لا بدّ من أن يدعوه ذلك إلى أن يدقّق في كلامه جيّداً، فلا يتكلم بالكلمة إِلَّا بعد أن يتدبّرها.